الفصل الثالث

علاقة

القدر - الإرادة - الهداية

نرى أن الهداية على مرتبتين أو نوعين حسب بحثنا:

الأولى: الهداية الجبرية الجارية وفق متطلبات الشريعة الفطرية.

الثانية: الهداية التي تؤخذ فيها إرادة الإنسان بنظر الاعتبار.

١. الهداية الجارية وفق متطلبات الشريعة الفطرية

إن كل موجود عند توجهه نحو الهدف أو الغاية المقدرة له وفق قوانين الخلق والفطرة يسلك سلوكاً إجبارياً. والأصح أن نسمى هذا السلوك: "السَّوْق الإلهي". فأول خلق الإنسان ونموه علَقةً في رحم الأم وتحوله من مرحلة جنينية إلى أخرى، كل ذلك يجري حسب هذا السوْق الإلهي. والأمر نفسه جار في المخلوقات جميعها، إذ كلها تجري وفق مصالحها، وهذا معلوم لدى الجميع في أيامنا هذه. ورغم أن الطبيعيين والماديين يطلقون على هذا السَّوْق الإلهي "الغريزة" أو "السَّوق الطبيعي" فإن عالم الوجدان يرى أنه سَوْق إلهي.

وفي الحقيقة أن "دليل الهداية" هو أحد أدلة التوحيد، وهو موضوع مستقل بذاته يربط كل ما يجري على وفق هذا السَّوق الإلهي والهداية الربانية بوجود الله ووحدانيته.

إن كل شيء ينجز ما أُنيط به من وظيفة بهذا السَّوق الإلهي، من الذرات إلى المجرات. أي من الألكترونات الدائرة حول نواة الذرة إلى السيارات

والمجرات السابحة في الفضاء، فكل شيء يسير وفق الخط المرسوم له من قبل الله سبحانه، ويسعى للهدف المخطط له دون أن يحيد عنه قيد أنملة.

ترقد الدجاجة على بيضتها وتنتظر انتهاء مدة الحضانة صابرة على الجوع والعطش وشدة الحرارة ولا تترك موضعها قط. تُرى هل هي على علم عن ماذا ستفقس البيوض؟ ولِمَ تعاني هذه المعاناة كلها؟ علماً أنها بعد مدة ستزاحم أفراخها على الحبات الملتقطة! جواب هذه الأسئلة واضح بالنسبة لنا وهو أن الله يسوقها إلى هذه الجهة.

ثم أن الفرخ داخل البيضة ما أن يحين موعد خروجه إذا به ينقر جدار البيض من الداخل بمنقاره اللين الطري وتفقس البيضة ويخرج إلى حياة رحبة أكثر بكثير من حياته داخل البيضة، فمن أين له العلم والشعور بهذه الحياة الجديدة حتى يبذل قصارى جهده للخروج إليها من البيضة؟

وكذا الطفل ما أن يولد حديثاً حتى يتلهف إلى صدر أُمه ليمص ثدييها. ثم مَن الذي ملأ صدر تلك الأم بالحليب الخالص، ثم مَن الذي دلّ الطفل على أن الحليب في الثدي؟ ومَن علّم مص الثدي للطفل. والجواب عن هذا وأمثاله من الأسئلة هو الجواب الوحيد: كل ذلك يحدث بسَوْق إلهيّ.

والقرآن الكريم يذكّرنا في كثير من مواضعه بهذا السَّوق الإلهي نذكر منها:

آ- ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل: ٦٨).

نعم إن جماعات النحل قد تعلمت صناعة العسل بمثل هذا الإرشاد والتعليم والهداية. فالله ﷻ يوحي إلى النحل أن تتخذ من الجبال والأشجار بيوتاً لها، تأوي إليها، وتتعلم من هذا الوحي صناعة قرص العسل... والهندسة التي تستعملها في صناعة قرص العسل والخلايا التي لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون بمعرفة النحل، أي أن تلك الهندسة توحَى إليها وحياً.

ثم أن النحلة تنتقل من زهرة إلى أخرى لتجتني منها الرحيق. ولأجل ألاّ تضل الطريق تستعمل خطة معينة. فتترك في المواضع التي تمر عليها آثاراً خاصة بها. وتعود إلى خليتها متتبعةً نفس الآثار، وفي النهاية تضع ما جمعته من رحيق الأزاهير في خلاياها.

لا شك أن إدارة خارقة تبدو واضحة في الخلية. نعم إن سَوقاً إلهيًّا يشاهد هنا بحيث إن أي دولة عظيمة عريقة محكمة النظام لا تضاهي إحكام تلك الإدارة في خلية النحل.

هناك النحلة الأم تسيطر على إدارة الخلية، وهناك الذكور بعدد قليل للتلقيح، وبقيتها العاملات التي لا تفتأ تعمل دون توقف مؤدية وظائفها على أفضل وجه.

وعندما يحين موعد وضع البيوض فإن النحلة الأم (المِلِكة) تضع بيُوضها في كل خلية من الخلايا، ويؤدي العدد القليل من الذكور وظيفتهم الفطرية. وهنا تنتهي مهماتهم، ويظلون في الخلية كطُفَيْلِيّين ليس لهم عمل سوى إلتهام ما جني من عسل. فالنحلة الأم تستبقي عدداً منهم وتفني البقية الباقية من ذلك. والعدد الباقي منهم سينجزون أعمالهم الفطرية في السنة المقبلة.

فكما لا يُسمح للذكور الطفيليين بالحياة كذلك لا يسمح لأحد من النحل الأجانب بالدخول إلى الخلية، ونشاهد فضلاً عن هذه الإدارة الحازمة، تنظيفاً بنفس المستوى من الجد والحزم. فمثلاً النحلة العاملة التي أتت بالرحيق والطلع إن لم تكن على نظافة تامة –كأن يكون في أقدامها شيء من الطين– لا يُسمح لها بالدخول. أو أن نحلة واحدة إن لم تطع الأوامر وأظهرت نوعاً من الفوضى فإنها تُطرد حالاً من الخلية.

تُرى مَن علّم النحلَ هذه الأمور وهي لا تملك إلاّ دماغاً صغيراً جداً؟ مَن علّمها هذا العلم، بحيث إن ما تصنعه من الخلايا وتنتجه من العسل قبل خمسين مليوناً من السنين، هو نفسه ما تصنعه وتنتجه في الوقت الحاضر. إن النحلة لم

تتكامل تدريجياً، بل هي كاملة منذ نشأتها، ومنذ خلقتها فهي عالمة بعملها وهي تستمر هكذا على مر العصور. فبدءاً من حكمة وضع هندسة الخلية على شكل مسدس وليس على شكل مثلث أو مربع إلى صناعة العسل، ذلك السائل اللذيذ الذي فيه شفاء للناس، في كل مرحلة من مراحل هذه العمليات سَوق إلهي حتى إننا لنشعر وكأن نفحات الوحي والإلهام تسير جنباً إلى جنب مع كل عملية من عملياته. نعم كأننا نستشعر بذلك ولكن النحلة تعمل كل عملها وهي لا تستشعر بنسائم هذا الإلهام قطعاً، بل تعملها بسَوق غير شعوري. نعم إنه لا يمكن إيضاح عمل النحل إلاّ بالسَّوق الإلهي.

نخلص من ذلك أن الذي علّم صناعة العسل للنحل هو الله ﷻ، وعلّم سبحانه أيضاً واجبات كل من المِلكة والذكور والعاملات، وهو الذي نصّب النحلة الأم مِلكة حاكمة على الخلية والأُخريات خاضعات مطيعات لها.

ب- النمل أيضاً يحظى بإلهام إلهي. فالآية الكريمة الآتية تبيّن لنا هذا:

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(النمل: ١٨).

كيف قالت النملة ما قالت؟ لا بد أن للنمل لساناً خاصاً به، ونمطاً معيناً في الحوار. وعلماء الحيوان الحاليون يرددون الآتي:

مَسْكنان للنمل. أحدهما صغير والآخر كبير في الطرف الآخر من خندق صغير، نقلت إحدى النملات من مسكنها إلى مسكن آخر. بعد صمت وسكون لم يدم طويلاً، خرج النمل الذي أضاع فرداً من أفراده متوجهاً إلى المسكن الآخر، عابراً الخندق على عصا ملقاة عليه، وأغار على المسكن الآخر.

والآن مَن الذي أخبر عن ضياع هذه النملة ووجودها في المسكن الآخر؟ والإختصاصيون يفسرون الأمر هكذا:

إن النملة التي وضعت في المسكن الآخر أخبرت صديقاتها بالخفاء وذلك بإحداثها موجات كهرومغْناطِيسية عما جرى عليها من أحوال وعن

موضعها الحالي بإحداثيات معينة، وبعد هذه المحاورة التي تمت بخفاء تام استنفرت أصدقاءها لإنقاذها فشنّوا هجومهم على المسكن الآخر.

بمعنى أن النملة تتكلم.. وقد علّم ﷻ سيدنا سليمان لغة النمل. ولهذا تبسم سليمان ضاحكاً من قولها[1] وتوجه شاكراً إلى ربه تحديثاً بهذه النعمة العظيمة.

إن للنمل نظاماً اجتماعياً شبيهاً بالنظام الجمهوري، فالجميع يكدون لخزن الغذاء في مسكنهم وليست هناك نملة كسْلانة قط. فإذا ما كان حمل الغذاء ثقيلاً عليها تستدعي صاحباتها فيتعاونّ في نقل الغذاء إلى المسكن، والنملات في سعي دائب طوال الصيف، وفي أثناء الشتاء تكتفي بالغذاء المدخر، وأحياناً تَدبُّ الرطوبة إلى حبوبها المخزونة، فتحتاج إلى عرضها إلى الشمس. وبعد جفافها تنقلها إلى المسكن مرة أخرى، وقد يحدث أحياناً نمو في بعض الحبوب، فتقوم حالاً بتقسيمها إلى قسمين، وإذا ما نما أحد الأقسام تقسمه مرة أخرى إلى قسمين، وهكذا تحافظ على الحبوب للخزن في إطار الاستفادة منها، حيث الحبوب التي نبتت لا تفيدها بشيء.

مَن علّم النمل كل هذا؟ مَن علّمها هذه المسائل الدقيقة المتداخلة وهي تحمل جسماً أصغر من حجم حافظتنا في الدماغ؟

وجوابنا واضح كما هو الحال في الأسئلة الأخرى: إنه الله سبحانه الذي ألهم النمل كل هذه الأمور، والنمل يساق بهذا الإلهام الإلهي.

"عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قرَصتْ نملةٌ نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرْيةِ النمل فأُحرقتْ، فأوحى اللهُ إليه: أنْ قرَصتْك نملةٌ أَحْرقتَ أمّةً مِن الأُمم تُسبّحُ".[2] فالنمل كما هو مشاهد أمة بذاتها، مسبحات لله بلسانٍ لا نفقهه.

---

(١) انظر: سورة النمل، الاية: ١٩.

(٢) البخاري، الجهاد ١٥٣.

وفي رواية الحاكم في مسنده يقول الرسول ﷺ:

"خرج نبي من الأنبياء يستسقي، فإذا هو بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء. فقال: ارجعوا فقد اُستُجيب لكم من أجل شأن النملة".[1]

فالنملة تعمل كل هذا بسَوق إلهي وإلهام منه تعالى.

ج- يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى الجهة الاضطرارية للقدر وكون الحيوانات أمماً أمثالنا:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام: ٣٨).

يروي أبو داود عن رسول الله ﷺ حديثاً أنه ﷺ قال: "لولا أنّ الكلاب أمّةٌ من الأمم لأمرتُ بقتلها كلِّها ولكنِ اقتلوا منها كلَّ أسْودَ بَهيمٍ".[2]

لقد قلق العلماء من انتهاء نوع من نسل رَخم المسمى بـــ(Geronticus eremita) في تركيا، لأن لكل موجود موضعه المعين في توازن البيئة، فانتهاء نسله يعني انفتاح ثغرة في التوازن. فمَن علّم كل موجود أن يجد موضعه في هذا التوازن للبيئة؟

نحن نقول لهذه المسألة: الهداية الجبرية (الاضطرارية) أو الهداية الجارية ضمن متطلبات الشريعة الفطرية. فنحن ننظر إلى جميع أنماط هذا السَّوق والانسياق ونقيسها من هذه الزاوية.

٢. الهداية التي تأخذ إرادة الإنسان بنظر الاعتبار

إن الله سبحانه يهدي الناس بإرساله وسائل شتى للهداية. فكما أن الأنبياء أسباب ووسائل لهداية الناس، فالكتب المنـــزلة أيضاً أسباب ووسائل

---

(١) المستدرك للنيسابوري، ٣٢٥/١.

(٢) الدارمي، الصيد ٤٣؛ أبو داود، الأضاحي ٢١؛ الترمذي، الصيد ١٠.

للهداية. والذين يسعون في سبيل التبليغ والإرشاد هم وسائل أيضاً بهذا المعنى للهداية، علماً أنه سبحانه رغم إرساله وسائل شتى للهداية لا يُخضع الناسَ كرهاً إلى قبول هذه الوسائل. أي لا يضطرهم إلى الإيمان بها اضطراراً. وحيث إن الأمر هكذا فقد يكون أحد وهو في بيت النبوة إلاّ أنه لا يهتدي، أو يكون معارضاً له، وربما في قصر فرعون يتربى مؤمن آل فرعون، وآسيا. وذلك لأن في هذا النوع من الهداية إرادة الإنسان وهي موضوع البحث. فالله سبحانه يخلق جميع الوسائل المؤدية إلى الهداية. ولكن خلقه للهداية مرتبط بإرادة الإنسان نفسه، وعلى الرغم من كونها مجهولة الماهية ونسبية إلاّ أنها شرط عادي في قيام الهداية عليها.

وفي القرآن الكريم هناك الكثير من هذا النوع من الهداية. سنذكر واحداً أو اثنين منها:

١. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(فصلت:١٧).

بمعنى أن وسيلة الهداية قد بلغت قوم ثمود، بسيدنا صالح عليه السلام. ولكنهم استحبوا بإرادتهم السيئة الضلالةَ وتمردوا على الهداية غروراً وعتوّاً منهم، حتى أرداهم إلى النار والعذاب الأليم.

٢. لقد أرسل الله سبحانه رسلاً كثيرين للناس كيلا يُعذَر الذين ضلوا بإرادتهم: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٥).

فالذين ضلوا السبيل لا يمكنهم أن يظهروا حجة ومعذرة لضلالتهم، لأن الرسل الذين أُرسلوا تترى قد بَلّغوا الحقائق بوضوح تام وعلى نصاعتها، ووضحوا مغبة السيئات، وما توصله الحسنات إليه من ذرى سامقة من الكمالات: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر: ٢٤).

نعم ما من أمة إلاّ وأرسل إليها نبيّ بشيراً ونذيراً يبلّغهم الحقائق، والله سبحانه يخلق الهداية لمن يستمعون إليهم بإرادتهم. أما الذين استحبّوا الضلالة فيظلون في الضلالة التي أرادها الله لهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٥).

نعم لقد أرسل الله سبحانه أنبياء ورسلاً كي يسدّ طريق الحجة على الناس ولا يبقى لهم محل للاعتراض، وهؤلاء أصبحوا هداة أضاءوا الطريق لأممهم. وكانت حصتنا شمس النبوة وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ، فلا حجة لنا عند الله ولا عذر لنا قط. لأننا كما نسمع صوت الرسول ﷺ، ونستشعر أنفاسه المباركة. كذلك الآيات الجليلة في القرآن الكريم تنير أرواحنا، وتلاطف وجداننا كل حين.

فضلاً عن هذا "إنّ الله يَبعث لهذه الأمّة على رأْس كلّ مائةِ سنةٍ مَنْ يجَدِّدُ لها دينَها" فضلاً منه وكرماً،(١) يطهّر أنفسنا من الأدران ويزكّيها ويجدّد إنسان كل عصر حياته الدينية بوساطتهم ويبعث فيها الحياة. وكل هذا وإرادة الإنسان موضوعة في الحسبان، أي أنه ﷻ ربط الهداية بطلب العبد رغم أنه خالق الهداية ووسائلها. فالهداية الاضطرارية (الجبرية) غير واردة هنا إطلاقاً.

وأحياناً يخلق سبحانه الهداية والضلالة مباشرة آخذاً أهْلِيّتهم بنظر الاعتبار.

يرسل الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ ويبلّغ الرسول الدين سيدَنا أبا بكر ﷺ. فيؤمن دون تلكؤ أو كبوة ويتنور قلبه بنور الإيمان فوراً، وإذا به يرتفع إلى قمة "الصدّيقيّة".

ويرسل الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ أيضاً، ولكن يقابله هذه المرة أبو جهل، فيخلق الله سبحانه بحقه الضلالة لعلمه الأزلي بأنه معدوم الأهلية

---

(١) أبو داود، الملاحم ١.

للهداية، وهو بدوره يصدّق هذا الحكم بحقه بأفعاله فيزيد من كفره وكفرانه يوماً بعد يوم. فيتردى أكثر وأكثر حتى يجد مصرعه في غزوة بدر.[1]

٣- يجمع القرآن الكريم في آية واحدة نوعي الهداية معاً ملفتاً إليها النظر ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس:٢٥).

إن الله سبحانه يدعو الناس بوسائل شتى إلى الهداية والصراط المستقيم، إلاّ أنه في الهداية يربطها بمشيئته. فيهدي من يشاء ويضل من يشاء.

إن جهة صغيرة من المسألة متعلقة بالإنسان. فإن استجاب إلى دعوة الله سبحانه وسعى للاستفادة من وسائل الهداية، يتجلّى الله سبحانه عليه بمشيئته ويبلغه الهداية.

إن القرآن الكريم منبع الهداية، ولا ينتفع به إلاّ من شاء الله أن ينتفع، فيكون منبع هداية لهم إذ هو ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:٢). وحيث إن الكلمة "معنى مصدري" نفهم منها أن العبد يجب أن يسعى ليكون أولاً متقياً، ويكون أهلاً للاستفادة من القرآن، وهذه جهة تخص العبد. أما الجهة التي تعود إلى المشيئة الإلهية فتوضحها الآيات التي ترد بعدها بآيات: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾(البقرة: ٥).

فأولئك كانوا يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ويؤدون الفرائض، من صوم وزكاة، ويؤمنون بالكتب المنـــزلة من قبل، ويؤمنون بالآخرة... فهذه العقيدة رفعتهم إلى مستوى "المتقين"، والله سبحانه قد أراد لهم الهداية فخلق الهداية.

٤- يقول الله سبحانه مخاطباً نبيَّه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ٢٨٧/٣.

مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى: ٥٢، ٥٣).

تظهر مرتبتان للهداية في هذه الآية الكريمة:

الأولى ما هي إلاّ كونها وسيلة وواسطة ليس إلاّ. والقرآن الكريم يصف أحياناً هذه الواسطة والوسيلة أيضاً للهداية. فالهداية بهذه المرتبة لا تتجاوز حدّ الوسيلة.

أما المرتبة الثانية للهداية فهي خلق الله سبحانه الهداية في قلوب الناس. فكما يخلقها بوساطة الوسائل يخلقها سبحانه مباشرة أيضاً. وما هذه الهداية إلاّ تفضّل ولطْف منه سبحانه، وقد اختار العلماء السابقون لهذا عنوان "اللطف الجبْري". نسأله تعالى أن يرزقنا الهداية باللطف الجبري.

إن الهداية والضلالة من خلق الله ﷻ مباشرة. والحديث الشريف الآتي ينور هذه الحقيقة: "عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بُعثتُ داعيًا ومبلغًا وليس إلي من الهدى شيء، وجُعل إبليس مزيّنا وليس إليه من الضلالة شيءٌ".[1]

إن الإنسان إنما يسأل بإرادته، ثم يخلق الله سبحانه الشيء الذي سأله. فرغْم أن قدرة الإنسان للحصول على ما يثاب عليه محدودة جداً، فإن له قدرة صورية ظاهرية إلى جهة السيئات والآثام. لأن الشرور والآثام من نوع التخريب، إذ كما يتمكن الإنسان من أن يحرق بيتاً بعود ثقاب، يستطيع أن يقترف آثاماً وذنوباً عظيمة جداً بإرادته الجزئية. علماً أن جميع الأثوبة والحسنات التي ينالها آتية إليه من الله سبحانه. والواجب على العبد الثبات على باب الثواب والخير هذا. فكلما كان قصده وعزمه إلى الخير فإن الله سبحانه يكتب له الثواب والحسنات وييسر له طرق الخير جميعاً. فالهداية إذا نُظر إليها من هذه الزاوية، فهي ضرورية لكل شخص في كل زمان وفي كل مكان.

---

(١) ضعفاء العقيلي، ٨/٢؛ ميزان الاعتدال للذهبي، ٤١٦/٢؛ كنز العمال للمتقي، ٥٤٦/١.